مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 7 العدد 2 / ديسمبر 2021
ص ص 287-295

شعرية المكان في أدب مصطفى صادق الرافعي (كتاب المساكين نموذجا)

The Poetry of Place in the Literature of Mustafa Sadiq Al-Rafi'i (Book of the Poor as a Model)

عنتر رمضاني
طالب دكتوراه، جامعة غرداية (الجزائر)،
مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب
(فرقة النقد والتراث بالجنوب الجزائري) (الجزائر)
ramdani.antar@univ-ghardaia.dz

الاستلام: 2021/05/03 القبول: 2021/06/23 النشر: 2021/12/31

ملخص:

نسعى في هذه الورقة إلى استجلاء معالم الشعرية في عنصر المكان الذي وظفه الرافعي في كتاب المساكين من قصتي "مسكينة مسكينة" و"سحق اللؤلؤة"، مبينين علاقة المكان بالسرد عموما وبالشخصيات والزمن خصوصا، كاشفين عن ملامح الشعرية في سرده، والأبعاد المنضوية فيه، وكيف تعامل الرافعي مع عنصر المكان وسخره في هاتين القصتين.

الكلمات المفتاحية: شعرية؛ المكان؛ الرافعي؛ المساكين.

Abstract:

In this paper, we seek to investigate the features of poetry in the element of "place" used by Al-Rafe'ie in his book of "The Destitute" [In Arabic: Kitab Al-Masakin], specifically in the two stories: "The Fear of Ruin" and "The Pulverized Pearl". In this regard, we highlighted the relationship between the element of "place" and the narration on one hand; and with the characters and time on the other hand. This is carried out to discover the features of poetry in his narration, the linguistic dimensions involved in it, and how Al-Rafe'ie dealt with the element of "place" and made use of it in these two stories in particular.

Keywords: poetry, place, Al-Rafe'ie, The Destitute.

1.مقدمة:

وظف الأديب مصطفى صادق الرافعي تقنية المكان في كتاب المساكين بأسلوب فريد وطريقة بارعة في الكتابة، كيف لا وهو الأديب الذي شهد له أهل زمانه بنبوغه في اللغة دراسة وكتابة، خاصة وأنه يتصرف بطريقة فنية في سرد تلك القصص بصورة عجيبة، تجعلك تتوقف مرات ومرات لتعيد قراءة القصة، لترتسم في مخيلتك قصتان فريدتنا عن معاني الفقر وفساد معناه عند الناس، وأنهم لا يفقهون معنى المسكنة والغنى، وأن هذا سبب من أسباب تدهور المجتمع وشيوع مظاهر الانحراف فيه؛ والتي من أبرزها ألا يشعر الغني بفقر الفقير ويعطف عليه.

ومما لا شك فيه أن العملية السردية ترتكز على عناصر كثيرة منها الحيز المكاني الذي يعد من أبرز سمات السرد، وأهم مكونات العمل القصصي، والمكان في القصة ليس مجرد أداة يستعين بها الكاتب لإتمام قصته أو ما يود سرده، أو أنه

يستخدم من أجل رسم ديكور تسير فيه الأحداث وحسب، بل إن للمكان دورا في إضفاء جمالية على سير الأحداث وتفاعل الشخصيات، ولما له من شعرية في سرد القصة وحكايتها، وكذا الأبعاد النفسية والاجتماعية وعلاقته بالشخصيات أيضا، كل هذا وغيره مما للمكان أن يشغله ويُوَظَّفَ فيه. وقبل الخوض في مبحثنا هذا نود الإشارة إلى علاقة المكان ببعض عناصر السرد خاصة الشخصية، وأبعاده التي يتجلى فيها عبر السرد.

وارتباط المكان وعلاقته بالشخصيات مما يوضح ويزيد من شعرية الحيز المكاني في السرد القصصي، بالإضافة للأبعاد المنضوية فيه والمتعلقة بالجانب الاجتماعي خاصة، فيرتكز عليه الكاتب حتى يغدو النص أكثر شعرية وتعبيرا، أي يصبح السرد ذا مميزات ترقى به إلى مصاف النص الإبداعي. ومن خلال ارتباط المكان بالشخصية، والبعد الاجتماعي للمكان سنبحث في شعرية توظيف المكان وكيف ساعد نص الرافعي رحمه الله على أن يكون نصا مبدعا.

وللمكان علاقات كثيرة سواء بالزمن أو بالشخصيات أو الأحداث، وما يهمنا هنا هو ارتباطه بالشخصيات والأبعاد التي أخذها المكان في هاتين القصتين، كونهما مدار البحث.

مما لا شك فيه أن الحيز المكاني يعد من أبرز سمات السرد، وأهم مكونات العمل القصصي، والمكان في القصة ليس مجرد أداة يستعين بها الكاتب لإتمام قصته أو ما يود سرده، أو أنه مستخدم من أجل رسم ديكور تسير فيه الأحداث وحسب، بل إن للمكان دورا في إضفاء جمالية على سير الأحداث وتفاعل الشخصيات ولما له من شعرية في سرد القصة وحكايتها، ولما له من أبعاد نفسية واجتماعية وعلاقته بالشخصيات أيضا كل هذا وغيره مما للمكان أن يشغله ويُوَظَّفَ فيه. وقبل الخوض في مبحثنا هذا نود الإشارة إلى علاقة المكان ببعض عناصر السرد وأبعاده التي يتجلى فيها عبر السرد.

وكما أشرت من قبل فإن قصتا "مسكينة مسكينة" و" سحق اللؤلؤة" هما المعنيتان بالدراسة في هذا المبحث كونهما قصتان يتوفر فيهما عناصر السرد بما فيها الشخصية والزمان والمكان.

وتقنية الزمان والمكان في كتاب المساكين قد أبدع الرافعي في توظيفها عبر أسلوبه الفذ وطريقته البارعة في الكتابة، خاصة وأنه تصرف في سرد تلك القصص بصورة عجيبة تجعلك تتوقف مرات ومرات وأنت تقرأ وتعيد القصة لترتسم في مخيلتك قصتان فريدتنا عن معاني الفقر وفساد معناهما في الناس وأنهم لا يفقهون ما معنى المسكنة والغنى، وأن هذا سبب من أسباب تدهور المجتمع وشيوع مظاهر الانحراف فيه ولعل أبرزها ألا يشعر الغني بفقر الفقير ويعطف عليه. وارتباط المكان وعلاقته بالشخصيات مما يوضح ذلك، وكذا ارتباطه بالجانب الاجتماعي يستغله الكاتب حتى يغدو النص أكثر شاعرية وتعبيرا أي يصبح السرد ذا مميزات ترقى به إلى مصاف النص الإبداعي. ومن خلال عنصري ارتباط المكان بالشخصية، والبعد الاجتماعي للمكان سنبحث في شعرية توظيف المكان وكيف ساعد نص الرافعي رحمه الله على أن يكون نصا مبدعا. والمكان له علاقات كثيرة سواء بالزمن أو بالشخصيات أو الأحداث، وما يهمنا هنا هو ارتباطه بالشخصيات والابعاد التي أخذها المكان في هاتين القصتين.

2. رتباط المكان بالشخصية: للمكان حضور فاعل في حياة الشخصية فهو الذي يثير فيها "إحساسا ما بالمواظبة، وإحساسا آخر بالزمن وبالمحلية، حتى لتحسبنه الكيان الذي لا يحدث شيء بدونه، فكان واقعا ورمزًا، تاريخيا قديما وآخر معاصرا، شرائح وقطاعات، مدنا وقرى،

حقيقية، وأخرى مبنية من الخيال، كيانا نتلمسه ونراه، وكونا مهجورا غرفته سديمات لا نهاية لها[1]، فإذا ما تأملنا المكان في قصة "مسكينة مسكينة" نجده متنوعا يسافر فيه القارئ عبر أشكاله وصوره من خلال سرد الرافعي وطريقته في ذلك.

وكون الرافعي لم يعتمد السرد المجرد وإنما استخدم عنصر الوصف أكثر في القصة إلا أنه مع عنصر المكان لم يتطرق إلى وصفه توصيفا واضحا وبَيِّنًا، ولكنه وظفه توظيفا مناسبا، فالمكان في قصتي "مسكينة مسكينة" "سحق اللؤلؤة" قد أسهم في إضفاء معاني الشعرية التي نسعى إلى اثباتها، ومن الجلي أن دور المكان في العمل الفني يختلف اختلافا بيِّنًا عن واقعه المادي الجامد، إذ يتحول في الفن إلى فاعلية متحركة نابضة بالحياة أو يكشف عن صور الشخصية في العمل الفني ويؤثر فيها ويشكل ملامحها معتمدا في ذلك على لغة فنية، أو تكون له أبعاد نفسية أو اجتماعية أو غيرها، سواء كانت هذه الأماكن مفتوحة أم مغلقة. وها هنا وقفة مع البعد النفسي والاجتماعي للمكان، حتى تتجلى لنا أبعاده المختلفة كي نفهمه ونَعِيَ وظيفته، وقد طرح "رولان بورنوف" في "العالم الروائي" ضرورة الاهتمام بوظائف المكان في علاقاته مع الشخصية والمواقف والزمن[2].

● **البعد النفسي:** يرتكز هذا البعد أساسا على الشعور والاحساس، ذلك أن الانسان عندما يتصور مكانا معينا فإنه يربطه بإحساسه وشعوره، إن كان سعيدا أو حزينا، والأديب يصنع المكان في عمله الابداعي كي يشحن الواقع شحنات مختلفة من الأجواء النفسية فيبرز دوره في هذا التفاعل الذي يحصل بين السرد والمكان الذي اختاره، وعليه فإن البعد النفسي يحمل الانجذاب إلى مكان دون غيره مرتبطا بالإحساس بذلك المكان[3]. كما أنه يصور الجو العام للسرد ويحيطنا المكان بمجريات السرد وفق ما رسمه الكاتب وسياتي بيان ذلك في تطبيقنا على قصتي الرافعي واثراء ذلك أكثر.

● **البعد الاجتماعي:** وأما البعد الاجتماعي للمكان فهو البنية الأولى للرواية أو القصة، لأن المجتمع جزء من المكان، وفي هذا البعد يحاول الكاتب أن يعكس الجانب الاجتماعي للمجتمع ويصور الواقع الذي يلم به[4]. وهذا البعد مناسب لقصتي الرافعي رحمه الله، بل وتتجلى معالمه وصوره فيما سرده الرافعي من واقع الشعب ومعاناة الفقراء وحال الناس في تلك الفترة التي تزامنت مع اندلاع الحرب العالمية الأولى والتي سجل التاريخ أنها فترة من الفقر وفترة من آلام الإنسانية عامة. وفيما يلي عرض لملامح الشعرية في القصتين بشيء من الإثراء والتفصيل:

قدمنا أن القصة تتكلم عن معاناة مسكينة من المساكين في مجتمع فقير ألمت به المصائب والمسغبة من كل مكان، ولفه سقم في المفاهيم والأفكار، حتى غدا الفقراء فيه عارا ووصمة فضيحة فيه بسبب تغطرس هؤلاء الذين يظنون أنهم أغنياء، وحتى نتصور القصة أكثر وظف الرافعي رحمه الله أمكنة عديدة بحسب ما أورده في سرده لهذه القصة، سواء كانت أمكنة مفتوحة أم مغلقة، علما أن المكان المفتوح:" يساعد على تحديد السمة أو السمات الأساسية التي تتصف بها تلك الفضاءات وبالتالي الإمساك بما هو جوهري فيها أي مجموع القيم والدلالات المتصلة بها"، مثل القرية، المدن، القرية النضرة، الضاحية، .. وغيرها، والمكان المفتوح عالم بلا حدود وامتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات، وفي كل الآفاق[5]. على أن الرافعي قلل من استعمال الأمكنة المغلقة، والتي يكون فيها تحديد أقل لمساحة التفاعل بين الشخصيات وسريان الأحداث فيها، وربما تكون دلالتها أكثر

كثافة وعمقا. علما أنه لم يغرق في وصف تلك الأمكنة بل أوردها بمسمياتها فحسب وهي كالآتي:

الأمكنة المفتوحة	الأمكنة المغلقة
	القرية النضرة:" كانت لنا يا بني في هذه القرية النضرة فتاة بائسة ضاق بها العريض من هذا البر فخرجت إلى بعض المدن ...
المدن: فخرجت إلى المدن تستطعم الحياة.	القصر:" وانكفأت السيدة إلى قصرها فإذا فتاتها تنتفض من وعكة الحمى، وهي في سريرها كقلب أمها في اضطرابه والتهابه، وما تعلم من أين اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم.
طريق النهر: "وكذلك أخذت سمتها إلى طريق النهر، وأمضت نيتها على الموت غرقا، لتموت نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة، وترسل روحها المتألمة إلى السماء في دموع السماء.	
الضاحية:" وكلما امتد بها المسير قصرت مسافة النظر حتى توهمت أن الموت بادئ من عينيها، وإنها لكذلك إذ لمحها طفل قروي قد انقلب من المدينة إلى الضاحية، التي غادر فيها أمه العمياء، وكان يعتمل طوال يومه ...	

أ- **القرية النضرة:** اقتصر الرافعي رحمه على وصف القرية بقوله نضرة، يقول الرافعي رحمه الله على لسان الشيخ علي:" كانت لنا يا بني في هذه القرية النضرة فتاة بائسة ضاق بها العريض من هذا البر فخرجت إلى بعض المدن ...[6]. فوظف الرافعي مكان القرية حتى يفسح للقارئ المجال كي يتخيل في صورة هذا المكان المفتوح على آفاق واسعة من الحياة، وحتى يصل إلى غايته المحددة ويترك حرية إنشاء المكونات الأخرى لمساحة المكان وفضائه وخيال المتلقي. فالقرية تحوي مجتمعا صغيرا، يتصارع مع يوميات الحياة التي يعيشها الانسان فيها، لا سيما وأن تلك الفترة اتسمت بالتدهور على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، غير أن تلك القرية وصفها بقوله قرية نضرة وهذا ما هو معهود من القرى المصرية في تلك الفترة من الزمن، فالطبيعة في بعض المناطق بها ساحرة ونضرة جميلة، فيتراءى لك من خلال ذلك أن طبيعة الحياة قائمة على خدمة الطبيعة من زراعة وفلاحة وغيرها لترتسم لدى المتلقي معالم الكدح والشقاء الذي يبذله هؤلاء الذين يقطنون بالقرية في سبيل الحياة. والبؤس الذي حل بالفتاة قد وقع لها وهي تصارع الحياة وسط هذه القرية التي امتلأ أهلها جهلا وعتوا، ومن بؤس حياتها في تلك القرية المتعفنة بكل مظاهر التخلف: تمشي تلك الفتاة وكأن ليس فيها دم ينتهي إلى قدميها فهي تجرهما جراً وتقتلعهما بين الخطوة والخطوة، وكل الناس يهزأ بها، وهي ترى كل انسان على ملكه كأن قانون وضع لعقابها"[7]. فاختيار الرافعي للقرية دون وصف مناسب جدا لشخصية الفتاة، كون الفتاة أضحت مشردة تخرج على الناس قذرة وسخة، فيهزؤون بها، بدل أن يعينوها ويقدموا لها يد المساعدة، وذلك لقلة الوعي وكثرة الجهل مما دعاهم لظلمها وقهرها أكثر فأكثر.

ب- **المُدُن والمدينة:** وردت هذه اللفظة دون وصف ليترك لنا الرافعي الأفق رحبا لنتخيل أن هذه المدن مبثوثة وموزعة على قطر تلك

المنطقة التي توجد بها القرى يقول الرافعي رحمه الله:" فخرجت إلى المدن تستطعم الحياة ..."[8]. فالمدن بها شيء من الحياة الرغيدة، لما فيها من المدنية والتحضر وسبل العيش الرغيد، لا سيما إن كان سكانها ذوي ثقافة وفكر يعينهم على العيش بصورة حسنة، وذكر المدينة أساسا حتى يمايز بين الحياتين تلك التي في القرية يملؤها الفقر والمسكنة، وتحتلها صوارف الدنيا بمعاناتها وآلامها لا سيما مع الفقراء والمحتاجين، وكما هي العادة في نظرة أهل القرى للمدينة على أنها أساس العيش الرغيد والطيب، وهجرتهم لها مما يدل على ذلك. فيقابلك في هذا عالمان، أو صورة لمكانين في قصة مسكينة مسكينة، صورة القرية التي امتلئت ظلما وجهلا، وصورة المدينة التي تحلم تلك الفتاة وغيرها من مساكين تلك القرية أو ممن يعاني على شاكلتها الوصول إليها والتنعم في خيراتها، أو على الأقل يقصدون الكفاف في العيش. ومنه فغياب الوصف من الرافعي لكل من القرية والمدينة سيفتح أفقا رحبا وفضاء واسعا للقارئ حتى يبحث عن الدلالات الخفية من غياب ذلك فيسرح بمخيلته نحو المعاني المندسة وراء وصفه للشخصية، أو وصف محيطها الخارجي وغير ذلك.

ج- **طريق النهر:** يقول الرافعي: "وكذلك أخذت سمتها إلى طريق النهر، وأمضت نيتها على الموت غرقا، لتموت نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة، وترسل روحها المتألمة إلى السماء في دموع السماء[9]. اختارت الفتاة طريق النهر حتى تقذف بنفسها فيه وتنهي حياتها البائسة، ولم يعرج الرافعي على وصفه كيف هو ولا من أي الجهات هو أي شيء يتصل بوصفه من قريب ولا من بعيد، واختيار الرافعي لطريق النهر مثلا دون البحر أو دون المستنقعات له دلالة عميقة، وما يدل على ذلك هو قوله:" لتموت نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة" لأن ماء النهر نقي ونظيف، فهي تريد التخلص من درن عيشها ووسخه وما أصابها في تلك القرية المظلمة القذرة، وهو طريق إلى النهر، مما يدل أنها قد تعبت لأجل الوصول إلى ذلك المكان وفي طريقها إليه تحملت مالا يستطيع تحمله الكثير من الناس، واستعماله بهذا المعنى يمنح النص ملامح شعرية راقية، مبنية على عمق الدلالة واختصر الوصف و العبارة.

د- **الضاحية:** ج م ضواح، وهي ناحية ظاهرة خارج البلد، أو تجمّع سكنيّ قائم حول العاصمة أو أيّ مدينة رئيسيّة "ضواحي المدينة"[10]، يقول الرافعي:" وكلما امتد بها المسير قصرت مسافة النظر حتى توهمت أن الموت بادئ من عينها، وإنها لكذلك إذ لمحها طفل قروي قد انقلب من المدينة إلى الضاحية، التي غادر فيها أمه العمياء، وكان يعتمل طوال يومه في بعض المصانع أو هو يحمل طعامها الذي لم ينله إلا ببيع نفسه يوما كاملا"[11]. فذكر الرافعي أن الطفل الصغير قد أتى إلى تلك الضاحية القريبة من المدينة حتى يعمل من أجل أمه العمياء ويكسب قوت يومه، واختار الضاحية لقربها من المدينة، حتى لا يعمل في القرية ففرص الحياة أفضل في الضاحية والمدينة منها في القرية، وهروبا من تلك القرية التي هي صورة مرادفة لمعاني الشقاء، وهذا المكان مناسب لشخصية الطفل الصغير، إذ لو كان مقيما بتلك القرية للاقى مصيرا يشبه مصير تلك الفتاة وهو الموت على قيد الحياة، مما يضفي شعرية عميقة وملمحا دلاليا لها من خلال توظيف عنصر المكان في هذا المقطع.

هـ- **القصر:** يدل هذا المكان على الأبهة والعيش الرغيد، والرفاهية، ولا يعيش فيه إلا الأغنياء من الناس، بيد أن دلالة القصر تخفي وراءها الكثير من الايحاءات نحاول سبرها والوقوف عليها، يقول الرافعي:" وانكفأت السيدة إلى قصرها فإذا فتاتها تنتفض من وعكة الحمى، وهي في سريرها كقلب أمها في اضطرابه والتهابه،

وما تعلم من أين اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم[12]. قصر تنبعث منه صور الرفاهية والعيش العزيز، تعيش فيه امرأة مغرورة بجاهها ورزقها لو لبس معنى الغنى لفظا لما لبس غير اسمها، ولو كان للكبرياء رسم ما رأيته غير رسمها، فلم يقل الرافعي أنها تعود إلى بيتها أو مسكنها، بل قال تعود إلى القصر مسكن فخم، فوظف الرافعي رحمه الله مكان القصر حتى يناسب شخصية المرأة المغرورة ويعبر بحق عن غناها ورفاهيتها، فالقصر واسع الأرجاء، كثير الغرف به كل متطلبات الحياة الرغيدة، لكنه خال من الحياة بمعناها الاجتماعي، فكثيرا ما يوحي القصر الواسع بالهدوء والوحشة في أركانه، وأنت تتصور القصر يعيش فيه فردان اثنان أو ربما يوجد فيه بعض الخدم، فيعطينا هذا المكان ملمحا وتوصيفا عميقا نتتبعه بالدلالات المحيطة به من الشخصيات والسرد وغيرها نفهم من خلاله الغرض من ايراد المكان بهذه الصفة. ألا وهو صورة الجفاء والغربة التي يعيشها من يسكن فيه وهي تلك المرأة ولا أدل على تلك الغربة والوحشة أنه لما عادت تلك المرأة ووجدت ابنتها أصيبت بوعكة وحمى لم يسعها القصر رغم اتساعه ورحابته في سلواها وأنسها بما أصاب ابنتها وهرعت تنادي على أختها علها تجد في مواساتها أنيسا ورفيقا.

فشعرية المكان في هذه القصة تنصب في بوتقة الايحاءات التي نكتشفها من خلال غياب الوصف، لتنفتح أمامنا دلالات مكثفة وعميقة تتعلق بالسرد وموضوعه وفلسفته من خلال سرد الرافعي لها.

3. شعرية المكان في قصة "سحق اللؤلؤة"

إن كتابة الرافعي تتمثل في موضوعات شتى إسلامية واجتماعية وأخلاقية ووصفية ووجدانية، وكما يقول مصطفى الحاج:" في أدب الرافعي نواح وجدانية هي التي أطلقنا عليها كلمة خاصة فلسفة الرافعي فهو ولوع بالتبحر في مظاهر الوجود مهوس بالالتفات إلى الحياة التفاتا وجدانيا"[13]. ولكن أهم ما يميز تلك الكتابات هي الموضوعات الاجتماعية بيد أن الكتابة عند الرافعي لم تكن فكرة وعاطفة فحسب، بل كانت إلى ذلك فنا وأسلوبا وصناعة، وإن كان يغلب على أسلوبه الغموض والفلسفة العميقة فإن قلمه ينسج العبارات نسجا قويا باللغة الفصحى والألفاظ الجزلة، والذي يقرأ بعض مؤلفاته يجد الصعوبة في فهم الأسلوب، وذلك لثقافته الواسعة المتنوعة.

يفتتح الرافعي قصته بقوله على لسان الشيخ علي:" وإني محدثك الآن حديثا يشفي نفسك من الخبر، ويفتح عليك أبوابا من العبرة والموعظة ويحضرك طرفا من الدنيا بأقداره وعلله ومذاهب حكمة الله فيه كأنما أنت شاهد أمره، فلتعلمن أن في المال مشغلة عما سوى المال، وأن الحرص عليه حق الحرص لا يدخل أمرا من أمور الحياة فيعترض بين ورده وصدره إلا من ساء أحدهما أو كلا هما وفسد الأمر فعسى أن يتصل بما هو أجل منه خطرا وأنسى منزلة، فلا يكون ذلك الحرص إلا مضيعة، ولا تكون الرغبة فيما يستخلف إلا سببا في ذهاب ما لا يستخلف[14]. فهذه القصة قد أوردها الرافعي رحمه الله حتى نأخذ العبرة منها ونزداد ايمانا بأقدار الله تعالى كيف يصرفها في خلقه كيف يشاء، لا سيما في قضية المال والجاه وتقف على أن المال مشغلة عما سواه إذ المال عصب الحياة ولكنه ليس الحياة والانسان يسعى إلى الكفاف في العيش والاقتصاد فيه وأن يحيا طيبا كريما وان كان فقيرا. والحديث هنا عن شعرية المكان وكيف تناوله الرافعي ووظفه وما الايحاءات التي نكتشفها من خلاله ودلالاته التي نحاول القبض عليها، أي ملامح الشعرية التي يشغلها المكان في هذا الفصل من كتاب المساكين.

الأماكن المغلقة	الأماكن المفتوحة
	الأرض: قال الرافعي:"وجاءه يوماً سمسار يساومه في أرض له وجعل يراوغه ويترقى إلى خديعته بما أوتي السماسرة من خبث ودهاء، ويقبل به مرة ويدبر به مرة، والكونت في كل ذلك يعبث وينمي له، ثم صرفه على طمع كاليأس، فلما ذهب مدبراً قال: ويحي! لو أن هذا السمسار كان امرأة جميلة إذن لأدارني في يده كما يرقص الدينار على الظفر، فالحمد لله إذ خلق النساء على نظام رحيم فجعل في هذا الشر المحتوم موضعاً للهرب ..."
الكوخ والقصر: يقول الرافعي: "وما بك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لا تملكين قوت يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكنزه، وما بك عمرك الله وقد خرجت من الكوخ إلى القصر. ص	وتواصفوا عنده الجمال مرة وأفاضوا في حديث النساء والنعمة بهن- وقد تعالم الناس ذلك البغض منه- فلما أضجروه قال: حسبكم يا قوم أنا لست أنكر أن المرأة شيء طبيعي ولكني أسمعكم تقولون المرأة وتقولون المرأة ولا أرى المرأة نفسها كما تحدثون وتصفون، بل أرى

	مخلوقة غريبة الأطوار في هذه المدينة. وأرى خرقاء إن لم يكن معها الإفلاس فلا أقل من أن يكون معها الندم أو الغيظ أو السخط، وربما كانت بلاء ماحقاً يزف إلى الرجل يوم زواجه باحتفال ...
	ولما استوفى عمر السبعين وأصبح في يبسه وموته كأنه جذر قرن من الزمن، خرج في عيد مولده إلى سواد المدينة منحدراً إلى قرية يملكها، وانطلق يجتلي مناظر الطبيعة، فكان لا يرى في السائمة والطير والنبات والأزهار إلا شباباً وطفولة ...

- **أرض الكونت فيكتور:** أورد الرافعي هذا المكان في حديثه عن السمسار الذي جاء يساومه في أرضه من أجل أن يشتريها منه، يقول الرافعي:" وجاءه يوماً سمسار يساومه في "أرض" له وجعل يراوغه ويترقى إلى خديعته بما أوتي السماسرة من خبث ودهاء، ويقبل به مرة ويدبر به مرة، والكونت في كل ذلك يعبث وينمي له، ثم صرفه على طمع كاليأس. وردت الأرض هنا على صيغة "النكرة" وهي أرض من الأراضي التي يملكها الكونت كونه فاحش الثراء ويملك مالا كثيرا، ولعل الرافعي رحمه الله أوردها على صيغة النكرة كونها لا شيء مقارنة بما يملكه هذا الرجل، ومع هذا فنجده مستمسكا بها وجعل يعبث وينمي للسمسار حتى صرفه على طمع.

فتلوح لنا شعرية هذا المكان كيف أنه ورد على هذه الصيغة واكتنف دلالات عميقة، ومن تلك الدلالات مثلا: اثبات أن الكونت فيكتور فعلا رجل بخيل بخلا لا مثيل له، وحبه للمال حب كبير، جعله يساوم الرجل حتى صرفه كاليائس. ومن هنا نفهم أن المكان يفسح المجال للخيال كونه مكونا تخييليا تصنعه اللغة الأدبية من ألفاظ لا من موجودات وصور فحسب. وإن ذكره الرافعي دون وصف أو تفصيل فهو يحمل دلالات جمالية وايحاءات ووظائف فنية.

- **الكوخ والقصر:** الكوخ هو بيت مُسنَّم من قصب بلا كوة، وعادة ما يتخذه المزارعون والفلاحون وغيرهم كي يحفظوا فيه زروعهم[15]. وأما القصر فهو بناية فخمة واسعة، والجمع بين هاذين المكانين له دلالته الخاصة في حديثه عن الفتاة "لويز" والذي بفضل ذكره لهما قد عبر عن النقلة التي أصابت حياتها بقوله: يقول الرافعي: "وما بك أيتها المسكينة وقد كنت فقيرة بائسة لا تملكين قوت يوم فقبضت على أعناق سبعين سنة تجمع المال وتكنزه، وما بك عمرك الله وقد خرجت من الكوخ إلى القصر[16]. فصور لنا الرافعي تحول حياة الفتاة من الكوخ وهو المكان الذي طالما عاشت فيه طفولتها، ثم ها هي تنتقل منه إلى القصر، وهذا الانتقال من المكانين يختزل حياة تلك الفتاة ومعاناتها لا سيما وأن قصتها حزينة بعد أن أضحت "طريدة منبوذة استزلها فتى من عشيرتها على أن يتحللها وكان مها مقعد فؤادها زمنا، ثم طوح بها عاره وغدره ولؤمه جميعا، فخرجت هائمة على وجهها ولفظها قومها كما تطرح الثمرة إذا دب فيه الفساد من عبث الطير![17]. والقصر بدلالته العميقة يدل على الفراغ والهدوء والوحشة، وبدلالته الظاهر يشير إلى الغنى والأبهة والجمال وغيرها. فوظف الرافعي رحمه الله وجمع بين هذين المكانين حتى يجمع بين دلالتين عميقتين: لعلها تكون خروجها من الفقر والمسغبة إلى المعاناة ولكنها معاناة أكثر رسوخا لا سيما وأنها ارتبطت برجل سماه الرافعي رحمه الله: برجل هرم في البخل".

- **المدينة والقرية:** يجمع الرافعي بين هذين المكانين في كثير من فصول كتابه، ولعل ما أشرنا له في قصة مسكينة مسكينة من أن المدينة صارت حلما لأولئك الذين عاشوا في القرية، تلك القرية التي هي مجموع من المعاناة والآلام الإنسانية المفجعة، من غياب للقيم، وصورة متوحشة للجهل، والبغي والظلم، سواد البطالة والفراغ وغيرها، بينما المدينة فيها حركة وعمل، تحول وتغير في شتى الميادين. فالجمع بين هذين المكانين هو مقابلة بين الجهل والحضارة لتختفي وراءهما دلالات عميقة لعلنا أشرنا لها في شعرية المكان في قصة مسكينة مسكينة.

4. الخاتمة:

من خلال ما سبق نخلص إلى أن المكان أسهم بصورة عميقة عبر دلالاته التي وظفها الرافعي ولو أنه لم يعمد إلى الوصف، كون الوصف قد استغله في الشخصيات أكثر حتى تتضح لنا صورهم وحقيقتهم، في حين أنه يشير إلى المكان دون وصف تندس وراءه دلالات وأبعاد نفسية واجتماعية وغيرها، مما يجعل النص أو القصة ذات طابع متميز في السرد، تتجلى فيه شعرية المكان من خلال طريقة الرافعي في توظيفه، ليقترب المتلقي أكثر من فهم النص وأيضا من خلال عناصر أخرى

المراجع

1. الحاج كمال يوسف. (1946). مصطفى صادق الرافعي وأدبه. بيروت.
2. الرافعي مصطفى صادق. (1435-2005). المساكين. مصر: دار الصحوة.

3. القاضي عبد المنعم زكريا. (2009). البنية السردية في الرواية. عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية للنشر.

4. بحراوي حسين. (1990). بنية الشكل الروائي. بيروت: المركز الثقافي العربي.

5. عمر أحمد مختار. (1429-2008). معجم اللغة العربية المعاصر. مصر: عالم الكتب.

6. محمد آبادي محبوب محمدي. (2011). جمالية المكان في قصص سعيد حورانية. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.

7. مرتاض عبد المالك. (بلا تاريخ). في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد. عالم المعرفة.

الهوامش والإحالات:

1 – محبوبة محمدي محمد آبادي، جمالية المكان في قصص سعيد حورانية، ينظر المرجع، ص 89.

2 – حسن بحراوي، بينة الشكل الروائي، ينظر المرجع، ص 27.

3 – عبد المنعم زكرياء القاضي، البنية السردية في الرواية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية للنسر، الطبعة الأولى، 2009، ص 147.

4 - ينظر: عبد المنعم زكرياء القاضي، البنية السردية في الرواية، ينظر المرجع، ص 147.

5 -عبد المالك مرتاض، في نظرية الرواية، ينظر المرجع، ص57.

1 - مصطفى صادق الرافعي، كتاب المساكين ينظر المرجع، ص 107.

2 – مرجع نفسه، ص 107.

3 – مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص 107.

9 - مرجع نفسه، ص 111.

10 -أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد الثالث، عالم الكتب، الطبعة الأولى، 1429هـ/2008م، القاهرة مصر، ص 1350.

1 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ص 111.

2 – مرجع نفسه، ص 118.

1 - كمال يوسف الحاج، مصطفى صادق الرافعي وأدبه، رسالة قدمت إلى الدائرة العربية لنيل شهادة أستاذ في العلوم، وإلى الجامعة الأمريكية في بيروت، بيروت 1946. ص 03. (مطبوعة بالآلة الكاتبة).

2 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ينظر المرجع، ص 164.

15 - أحمد مختار عمر وآخرون، معجم اللغة العربية المعاصرة، ينظر المرجع، ص 1996.

16 - مصطفى صادق الرافعي، المساكين، ينظر المرجع، ص 185.

17 - مرجع نفسه، ص 178.